ملخص مادة الأدب الإسلامي

السنة: الأولى ماستر تخصص: أدب قديم

أ. حبيبة ضيف الله

كلف الطلاب ببحوث تطبيقية

لمحات إيمانية في شعر الحنفاء

كان نبيّ الله إبراهيم رحل قديماً إلى مكّة وأقام لابنه إسماعيل مقاماً فيها ، وجدّدا معاً بناء الكعبة الشريفة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإِسْماعِيلُ ، رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[1] .

وقد ذكر أبو هلال العسكري أنّ أوّل من غيَّر الحنيفية عمرو بن ربيعة ، أبو خزاعة[2] ، وهو أوّل من وُلّي البيت منهم ، ثم رحل إلى الشام ورأى الأصنام تُعبد ، فأعجبته عبادتها ، فقدم مكّة بـ (هُبَل) ، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية ، فأجابه الجمهور وأكره من لم يُجبه حتى استمرّ له ما أراد[3] .

وعلى الرغم من أنّ العقائد الجاهلية كانت طاغية على عامّة عرب الجزيرة قبل ظهور الإسلام ، إلّا أنّ بعض الخاصّة منهم كانوا يستهجنون عبادة الأوثان ويرون أنّ قومهم أخطأوا دين أبيهم إبراهيم عليه السلام الذي كان يسود شمالي الجزيرة العربية في زمنٍ من الأزمان السالفة ، فهجروا تلك العقائد السخيفة وأخذوا يلتمسون وينتظرون من يجدّد لهم دين إبراهيم القائم على التوحيد ، حيث نصّ القرآن الكريم في مُحكم آياته على أنّه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً في قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً** ﴾[4] .

ومع ذلك فإن بعض العقلاء من العرب لم تطمئن قلوبهم ولم تقتنع عقولهم لما وجدوا عليه آباءهم من زيغٍ في الاعتقاد وانحراف في التفكير ، فأنكروا ما هم عليه من إشراك بالله . وفي الوقت ذاته لم يؤمنوا بالعقائد اليهودية

---

(١) البقرة/١٢٧ .

(٢) هو لُحَيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي (الكلبي : الأصنام ، ص ٨) .

(٣) العسكري : الأوائل ، ١/ ٧٥ .

(٤) آل عمران/٦٧ .

والنصرانية التي اعتنقها بعض العرب في بعض أنحاء الجزيرة العربية ، كما أشرنا سابقاً ، فاعتزلوا جميع هذه المعتقدات الحائدة عن جادّة الصواب والحقّ ، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم (الأحناف) أو المتحنّفون الذين سخروا من تقديس أحجارٍ جامدة لا تنفع ذاتها ولا تضرّ سواها . فقد ذكر ابن هشام ، نقلاً عن ابن إسحاق ، أنّ قريشاً اجتمعت يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظّمونه وينحرون له ويعكفون عنده ، فخرج من بينهم أربعة نفرٍ ، فأخذوا يتناجَوْن فيما بينهم ، ثم قال بعضهم لبعض : « تعلمون ، والله ، ما قومُكم على شيء !! » وسخروا من أمرهم كيف يُطيفون بحجر ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضرّ ولا ينفع ، ثم تفرّقوا يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم . وهؤلاء الرجال هم ، زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وورقة بن نَوْفَل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحُوَيْرِث[1] .

وكان هؤلاء الحنفاء ، ومعهم آخرون من ذوي العقول الراجحة المطّلعين على أخبار الأمم السالفة ، لا ينكرون عبادة الأوثان فحسب ، بل حرّموا على أنفسهم شرب الخمر، ونَهَوْا عن الذبح لغير الله، وأدّوا بعض العبادات كالصلاة والصيام بالطريقة التي رآها كلّ واحدٍ منهم بطريقته الخاصّة .

ولدى النظر في شعر هؤلاء الحنفاء نجد أنّ مضامينه العَقَدِيّة تخالف ما نجده عند معاصريهم من شعراء الجاهلية . فهذا زيد بن عمرو بن نُفَيْل[2] العَدَوي يفارق دين قومه وأربابهم ويعتزل الأوثان ويلتزم تقوى الله فيقول في ذلك[3] :

أَرَبًّا واحِداً أمْ ألفَ ربٍّ أَدِينُ إذا تُقُسِّمَتِ الأُمورُ

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ١/٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢) هو زيد بن عمرو بن نُفَيْل بن عبد العُزّى ، أمّه جَيْداء بنت خالد ، وكانت عند نفيل فولدت له الخطّاب أبا عمر بن الخطّاب ، ثم مات عنها نفيل فتزوّجها ابنه عمرو ، فولدت له زيداً ، وكان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية (الأصفهاني : الأغاني ، ٣/١٢٣) .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ، ٣/١١٩ . ابن هشام : سيرة ، ١/٢٢٦ .

عـزلتُ الـلاّتَ والعُـزَّى جميعاً ... كَـذلـك يفعـلُ الجَلْدُ الصَّبـورُ
فـلا العُـزَّى أَدِينُ ولا ابْنَتَيْهَـا ... ولا صَـنَمَيْ بنـي عـمـرٍو أزورُ
ولا هُـبَـلاً أدِيـنُ وكـان ربًّـا ... لنـا في الدهـر إذ حِلْمي صغيـرُ
ألـم تـعـلمْ بـأنّ الله أفـنـى ... رِجـالاً كـان شـأنهمُ الفُجـورُ
وأبـقـى آخـريـنَ بـبِـرِّ قـومٍ ... فَيَـرْبـو منهمُ الـطفـلُ الصغيـرُ

ويقول فيها أيضاً :

ولـكن أعـبـدُ الـرحـمـنَ رَبّـي ... ليغـفـرَ ذنبيَ الـربُّ الغَـفـورُ
فتقـوى الله ربِّـكُـمُ أحفـظُهـا ... متى مـا تحفظوهـا لا تَبُـوروا[1]
تـرى الأبـرارَ دارهُـمُ جِـنـانٌ ... ولـلكـفّـار حـاميـةً سَـعـيـرُ
وخِـزْيٌ في الحياة وإن يمـوتـوا ... يُـلاقـوا مـا تضيقُ بـه الصـدورُ

وكان زيد هذا أحد من اعتزل الأوثان وامتنع من أكل ذبائحهم ، وكان يقول : يا معشر قريش ، أيرسل الله قَطْر السماء ، ويُنبت بَقْلَ الأرض ، ويخلُقُ السائمة[2] فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبـراهيم غيـري . وكـان إذا خلص إلى البيت الحـرام استقبله ثم قال[3] :

لـبَّيْـكَ حـقّـاً حـقّـا ... تـعـبُّـداً وَرِقّـا
البـرَّ أبغي لا الخـالَ ... وهَـل يـرى مُهَجِّـرا[4]

---

(١) تبوروا : من البوار وهو الهلاك .
(٢) السائمة : الماشية .
(٣) الأصفهاني : الأغاني ، ١٢٤/٣ . العسقلاني : المطالب العالية ، ٩٤/٤ .
(٤) البرّ : الطاعة والخير . الخال : الخُيَلاء . المهجّر : السائر في الهاجرة ، أي في شدّة الحرّ .

كمَنْ قال : آمنتُ بما أُمِر به إبراهيم ، ثم يقول :

عُـذْتُ بما عـاذَ بهِ إبـراهيمُ مُسْتَقْبِـلَ الكعبـةِ وَهْـوَ قـائمُ
أنـفـي لـكَ عـانٍ راغِـمُ مهمـا تُجشِّمْني فـإنّي جـاشِمُ[1]

ولمّا طال به الانتظار خرج زيد يطلب دين إبراهيم عليه السلام ، فيسأل رهبان النصارى وأحبار اليهود في كلّ مكان تطأه قدمه ، حتى بلغ المَوْصِل والجزيرة كلّها ، ثم أقبل فجال الشام كلّه ، حتى انتهى إلى راهب بأرض البلقاء كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب : ارجع فإنّه يوشك أن يظهر الذي تطلب في بلادك ، فإنّه مبعوث الآن ، وهذا زمانه . فترك الشام وأقبل يريد أرض الجزيرة ليشهد ظهور سيّد الخلق والأنام ، فعدا عليه أناسٌ من قطّاع الطرق فقتلوه في أرض البلقاء من بلاد الشام ومات على دين إبراهيم الخليل عليه السلام . وقيل : سُئل النبيّ ﷺ عن زيد فقال : (يأتي يوم القيامة أمّة وحده)[2] .

ويبدو لنا أنّ إيمان زيد بوجود الخالق المدبّر لم يكن إيماناً وجدانياً ، بل كان إيمان الرجل العاقل الذي نظر في آلاء الله ونَعْمائه وآثار وجوده ، كما سأل مَن كانت لديه أخبار الأمم السالفة ، فأيقن بوجود الله ووحدانيته ، إنّها حكمة العقل الواعي والتفكير السليم . وهذا ما نلمسه حين نراه يستقرىء عناصر الكون الدالّة على عظمة ربّ الوجود وقدرته المطلقة ، مسجّلاً لنا حوار موسى وهارون عليهما السلام مع طاغية عصرهما فرعون ، فيقول[3] :

وأنتَ الـذي مِن فضل مَنٍّ ورحمـةٍ بَعَثْتَ إلى مـوسى رسـولاً مُنـاديـا
فقلتَ لـه : فاذهبْ وهـارونَ فادْعُـو إلى الله فـرعونَ الـذي كان طـاغيـا
وَقُـولا لـه : أأنتَ سَمَكْتَ هـذه بـلا عَمَدٍ حتّى آستقـرّت كمَا هِيَـا؟

---

(١) عان : خاضع . جاشم : وصف من جشمَ الأمر ، إذا تجشّمه وتكلّفه على مشقّة .
(٢) ابن هشام : سيرة ، ١/٢٣١ . الأصفهاني : الأغاني ، ٣/١٢١ .
(٣) المقدسي : البدء والتاريخ ، ١/٧٥ .

وقُـولا لـه: أأنـتَ سَـوَّيْتَ هـذه بِـلا وَتِدٍ حتى آسْتَقـرَّت كمَـا هِيـا؟
وقُولا له: مَن يُرسِلُ الشمسَ غُـدوةً فتصبحَ ما مسَّت من الأرض صاحِيا؟
وقُـولا له: مَن يُنبتُ الحَبَّ والثـرى فتصبـحَ من البقـلِ يهتـزُّ راسِيـا؟

بعد هذه النظرات الثواقب في أسرار هذا الكون وبدائعه ، يعلن إسلامه وخضوعه لهذا الخالق المدبّر الذي لا معبود حقًّا سواه ، وذلك حين يقول[1] :

وأَسْـلمْتُ لـمـن أسـلمَـتْ لـهُ الأرضُ تحملُ صَخْـراً ثِقـالا
دَحـاهـا فلّمـا رآهـا استـوَتْ على المـاء أرْسَى عليها الجبـالا
وأسلمتُ وجـهي لـمن أسلمتْ لـه المُـزْنُ تحمـلُ عَـذْبـاً زُلالا

وقد رثى ورَقة بن نوفل زيداً ، حين بلغه نبأ مقتله ، فامتدحه بالرشد الذي خلّصه من النار، وذلك بتركه عبادة الأوثان، كما رأى في موته انتقالاً له إلى دار الخلود ، حيث يقول في رثائه[2] :

رَشَدْتَ وأنعمتَ ابْنَ عمروٍ وإنّما تَجنّبْتَ تَنُّوراً من النـار حـامِيَـا
بـديـنِـكَ ربًّـا ليس ربٌّ كمِثلهِ وتَرْكِكَ أوثـانَ الطواغي كمـا هِيَا
وإدراكِكَ الدينَ الـذي قد طلبتَـه ولم تكُ عن توحيدِ ربّكَ سـاهِيَا
فـأصبحتَ في دارٍ كريمٍ مُقـامُها تُعلَّلُ فيهـا بـالكـرامـةِ لاهِيَـا
تـلاقي خليلَ اللهِ فيهـا ولم تكنْ من الناسِ جبّاراً إلى النار هاوِيا
وقـد تُدْرِكُ الإنسـانَ رحمـةُ ربّـهِ ولو كان تحت الأرضِ سبعينَ وادِيَا

وكان ورقة بن نَوْفل أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية أيضاً ، وطلب الدين وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان . وكان يكتب بالعبرانية من الإنجيل ، وحين نزل الوحي على رسول الله ﷺ ، ذهبت إليه خديجة ،

---

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ، ١/٧٥ . الأصفهاني : الأغاني ، ٣/١٢١ .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ٣/١٢١ .

وكان ابن عمّ لها ، فأخبرته خبر ما رأى ، فقال ورقة : هذا هو الناموس الأكبر الذي أنزله الله تبارك وتعالى على موسى . ثم توفي ورقة قبل أن يُبعث رسول الله ﷺ[1] .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن ورقة فيما بعد فقال : « رأيته في المنام وعليه ثياب بياض ، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك »[2] .

ويذكر صاحب الأغاني أنّ ورقة كان قد تنصّر في الجاهلية[3] . إلّا أنّ الناظر فيما وصل إلينا من شعره لا يلمح أثراً للنصرانية فيه ، ففي رثائه لزيد بن عمرو يبدو حنيفياً على دين إبراهيم الخليل عليه السلام . وإذا قال قائل إنّ هذا الشعر قد يكون قبل تنصّره ، فإنّ أبياتاً أخرى قالها في أواخر حياته ، وبعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ تشير إلى إلحاحه في انتظار رسالة الإسلام ، وأنّه كان يتوقّع النصر لمحمّد ﷺ والسيادة لدينه والخسران المبين لمن يقف في وجهه . فقد قال حين جاءته خديجة رضي الله عنها بخبر السماء الذي نزل على صدر الأمين في غار حِراء[4] :

لججتُ وكنتُ في الذِّكرى لَجوجا ... لهمٍّ طالما بعثَ النَّشِيجا
ووَصْفٍ مِن خديجةَ بعد وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خَديجا
ببطن المكّتين على رجائي ... حديثكِ أن أرى منه خروجا
بما خَبّرْتِنا مِن قول قَسٍّ ... من الرُّهْبان أكرهُ أنْ يَعُوجا
بأنّ محمّداً سَيَسودُ يوماً ... ويخصِمُ مَنْ يكون له حَجيجا
فيلقى مَن يحاربُهُ خَساراً ... ويلقى مَن يُسالمهُ فُلُوجا
فيا ليتني إذا ما كان ذاكُم ... شهدتُ فكنتُ أوَّلَهم وُلوجا

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ١١٣/٣ .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ١١٣/٣ .
(٣) الأصفهاني : الأغاني ، ١١٤/٣ .
(٤) المقدسي : البدء والتاريخ ، ١٤٣/٤ . الأصفهاني : الأغاني ، ١١٤/٣ .

ولـوجاً في الـذي كَرِهَتْ قـريشٌ ولــو عجّتْ بمكّتهــا عَـجيـجـا
فــإن تـبقــوا وأبْـقَ يكـنْ أمــورٌ يضـجّ الكـافـرون لهـا ضَجيجا
وإنْ أهْلِكْ فكــلُّ فـتىً سَـيَلْقى مِن الأقــدارِ مَتْـلَفــةً خُــروجـا

فإذا صحّت نسبة هذه الأبيات له ، فإنّ ما نميل إليه هو أنّ ورقة مات على حنيفية إبراهيم عليه السلام ، وأنه لم يطلْ به العمر بعـد نزول الـوحي على محمّد ﷺ ، إذ لو أدرك إظهار النبيّ ﷺ الدعوة إلى الإسلام لما تخلّف عن أمر كان ينتظره ويستعجل بزوغ فجره .

أمّا أميّة بن أبي الصلت الثقفي فقد قرأ الكتب الأوّلين، إذ كان يأتي بأشياء لا تعرفها العرب ، فقد ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفيـة ، وحرّم الخمـر ، وشكّ في الأوثان . كما قرأ في كتب أهل الكتاب ، فعلم أنّ نبيًّـا يُبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكونه ، وهو الذي يقول :

كـلُّ دينٍ يـوم القيـامـةِ عنـد الـ ـلّـهِ إلاّ دينَ الـحـنيـفـةِ زُورُ

ويقول الأصمعي : « ذهب أميّة في شعره بعامّة ذكر الآخرة » . فلمّا بُعث النبي ﷺ لم يُسلم ، إذ كان يطمع في النبوّة ، فلمّا أخطأته غلب الكفر على قلبـه ، فأنـزل الله فيه قـوله : ﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّـذِي آتَيْنَاهُ آيَـاتِنا فَـانْسَلَخَ مِنْها﴾[1] .

وذكر صاحب الأغاني أنّه عُوتب على عدم إيمانه بـالإسلام ، فقـال : « فيئستُ من النبوّة ، وأصابني ما رأيت ، إذ فاتني ما كنت أطمع فيه »[2] . أي أنّه كان يطمع أن يكون هو نفسه صاحب الرسالة .

ولكن يبدو أنّ أميّة هذا لم يقف عند حدود البقاء في دائرة الكفر ، بل ناصر المشركين وأيّدهم بلسانه ، فرثى قتلاهم الذين سقطوا يوم بدر ، وحرّض

---

(١) الاعراف/ ١٧٥ .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ١٢٦/٤ .

قريشاً على المسلمين بقصيدة نال فيها من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن روايتها[1] .

ولمّا مرض أميّة مرضه الذي مات فيه جعل يقول : قد دنا أجَلي وهذه المَرْضة منيّتي ، وأنا أعلم أنّ الحنيفية حقّ ، ولكن الشكّ يداخلني في محمّد . وحين دنت وفاته أُغمي عليه قليلاً ، ثم أفاق وهو يقول :

لَبَّيكما لَبَّيكما هـأنذا لَـدَيْكُمـا

لا مال يفديني ، ولا عشيرة تُنجيني ، لا بريءٌ فأعتذر ، ولا قويّ فأنتصر .

ثم أقبل على القوم فقال : قد جاء وقتي ، فكونوا في أُهبتي ، حتى يئس القوم من مرضه ، فأنشأ يقول :

كـلُّ عـيشٍ وإن تـطاول دهـراً مُـنتـهى أمـرهِ إلـى أن يـزولا
ليتني كنتُ قبـلَ مـا قـد بَـدا لي في رؤوس الجبـال أَرْعى الْوُعـولا
اجعلِ الموتَ نُصْبَ عينيكَ واحْذَرْ غَـوْلـةَ الـدهـرِ إنّ للدهـر غُـولا

ثم قضى نحبه ولم يؤمن بالنبيّ ﷺ[2] .

ولدى النظر في شعر أميّة الذي وقعنا عليه نراه يؤمن بالجزاء ، مقرّاً بالجنة والنار ، فهو يقول[3] .

جـهنّـمُ تلك لا تُـبـقي بَـغِـيّـاً وعَـدْنُ لا يُـطالِعُهـا رجـيمُ[4]
إذا شَـبّـتْ جـهـنّـمُ ثـمَّ فـارَتْ وأعرضَ عن قوابِسها الجحيمُ[5]

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ٢/٣٠ .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ٤/١٣١ ، ١٣٢ . البغدادي : خزانة ، ١/٢٥٢ .
(٣) ابن أبي الصلت : ديوان ، ص ٤٧١ .
(٤) عدن : أراد جنّة عدن . طالع الشيء : أطلّ عليه .
(٥) القوابس : الذين يقبسون الناس الخير ، أي يعلّمونهم .

بـصَـنْـدَلٍ صُـمٍّ صِـلابٍ كـأنّ الضـاحِيـاتِ لهـا قَضيمُ[1]

ويقول في وصف الجنة[2] :

فـذا عـسـلٌ وذا لَبـنٌ وخـمـرٌ وقمـحٌ في مـنـابتِـه صَـريـمُ
وتـفّـاحٌ ورمّـانٌ ومَـوْزٌ ومـاءٌ بـاردٌ عـذبٌ سـليـمُ
وحُـورٌ لا يَـرَيْنَ الشمسَ فيهـا على صُـوَرِ الـدُّمَى فيها سُهـومُ
نـواعمُ في الأرائك قـاصراتٍ فـهنّ عـقـائـلُ وهُمُ قُـرومُ[3]
وحُـلّوا مِن أسـاورَ مِـن لُجَيْـنٍ ومِن ذَهبٍ وعَسْجـدةٍ كـريمُ[4]
ولا لَـغْـوٌ ولا تـأثـيمٌ فـيـهـا ولا غَـوْلٌ ولا فـيـهـا مُـلـيـمُ

وتكـاد لا تخلو قصيدة من قصـائده من ذكـر التوحيـد والتـذكيـر بقيـام الساعة ويوم الحساب . كما أنّه كثيراً ما يلفت النظر إلى عظمة الله وقدرته من خلال مشاهدته لمخلوقاته تعالى التي يقع عليها بصر الإنسان وحسّه ، وذلك حين يقول[5] :

إلـهُ الـعـالمـيـنَ وكـلّ أرضٍ وربُّ الـراسيـات مِن الجبـالِ
بنـاهـا وابْتَنى سَـبْعـاً شِـداداً بِـلا عَـمَـدٍ يُـرَيْنَ ولا رِحـالِ
وسـوّاهـا وزيّـنـهـا بـنـورٍ من الشمس المضيئـةِ والهـلالِ
ومِن شُهُبٍ تـلألأ في دُجاهـا مَـراميهـا أشـدّ من النصـالِ
وشقَّ الأرضَ فـانبجستْ عيـونـاً وأنهـاراً مِن الـعـذبِ الـزُّلالِ

---

(١) الصندل : خشب أحمر أو أصفر . الضاحيات : مفردها ضاحية ، وهي ما برز من الإنسان للشمس كالكتفين . القضيم : شعير الدابّة ، جعل جهنّم تقضم الناس قضم الدابّة الشعير .
(٢) المقدسي : البدء والتاريخ ، ١/٢٠٢ .
(٣) الأرائك : السرائر الفخمة المزيّنة ، ومفردها : أريكة : العقائل : النساء المخدّرة ، ومفردها : عقيلة . القروم : الأسياد ، ومفردها : قَرْم .
(٤) اللجين : الفضّة . العسجد : الجوهر كالدرّ والياقوت .
(٥) ابن أبي الصلت : ديوان ، ص ٤٩ .

وكـلُّ مـعـمّـر لا بـدّ يـومـاً وذي دُنـيـا يصيـرُ الـى زوالِ
ويَـفْنَى بعـد جِـدّتـه ويَـبْـلَى سِوى الباقي المقدّسِ ذِي الجَلالِ

وأحياناً نجده يؤنّب نفسه على اتّباعها هواها وانحرافها عن الحقّ ، مع تـأكّده من فنـاء الإنسان ، وضـرورة خوفـه من الموت ومـا يعقبـه من البعث والحساب ، وذلك في قوله[1] :

ألا أيّـهـا القـلبُ الـمـقـيـمُ عـلى الـهـوى
إلـى أيّ حـيـنٍ مـنـكَ هـذا الـتـصَـدُّدُ
عن الحقّ كـالأعمى المُـميطِ عـن الهـدى
ولـيس يَـرُدُّ الـحـقَّ إلا مُـفـنِّـدُ[2]
فـأيَّ فـتـىً قـبـلي رأيـتَ مُـخَـلَّداً
لـهُ فـي قـديـمِ الـدهـرِ مـا يَـتَـوَدَّدُ
فـكُنْ خـائـفـاً للمـوتِ والـبـعـثِ بـعـدَهُ
ولا تَـكُ مـمّـن غـرَّهُ الـيـومُ أو غـدُ

ولدى استعراضنا لديوانه نجد كثيراً من قصص الرسل والأنبياء ، كقصّة نوح والطوفان ، وقصّة فداء إسماعيل ، وقصّة آدم ، وغيرها من القصص الدينية المعروفة .

ويلاحظ طه حسين أنّ كثيراً من هذه الأخبار قد ورد خبرها في القرآن الكريم كأخبار ثمود ، وصالح والناقة والصَّيْحة وسواهـا ، ولا يرى في الأمـر استهجاناً لأنّ مثل هذه الأخبار لم تكن مجهولة قبل أن يأتي بها القرآن العظيم ،

---

(١) ابن أبي الصلت : ديوان ، ص ٤٥ .
(٢) المميط : المبتعد . المفنّد : ضعيف العقل .

إذ إنّ كثيراً منها كان معروفاً عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم[1].

ومع ذلك لا نوافق طه حسين في اعتقاده أنّ هذا الشعر وأمثاله قد أضيف الى أميّة وإلى غيره من المتحنّفين ، وأنّه مُنتحل ، وأنّ المسلمين هم الذين انتحلوه ليثبتوا أنّ للاسلام قُدْمة وسابقة في البلاد العربية[2].

إذ يبدو لنا أنّ طه حسين قد وقع في تناقض صريح مع نفسه ، فمن جهة يقرّ أنّ كثيراً من هذه الأخبار كانت معروفة عند أهل الكتاب ، ومن جهة أخرى يصف الشعر الذي جاء على ذكرها بأنّه من انتحال المسلمين أنفسهم . فالمسلمون ليسوا بحاجة إلى مثل هذا الشاهد من الشعر لتأكيد الفكرة التي أشار إليها ، خاصّة وأنّ القرآن الكريم قد عزّز هذه الأخبار وأكّدها في مُحكم آياته .

ومهما يكن من أمر هذا الشاعر ، فقد ذُكر أنّ النبي ﷺ أُنشد قول أميّة :

الحمدُ للهِ مُمْسانا ومُصْبَحنا ... بالخير صَبَّحنا ربّي ومسّانا
ربُّ الحنيفةِ لم تَنْفَدْ خزائنُها ... مملوءةً طبّق الآفاقَ سُلطانا
ألا نبيٌّ لنا منّا فيخبرَنا ... ما بعد غايتِنا مِن رأس مَحْيانا
بَيْنا يُرَبِّينا آباؤنا هَلكوا ... وبينما نقتني الأولادَ أفنانا
وقد علمنا لَوَ انَّ العلمَ ينفعُنا ... أنْ سوفَ يَلْحَقُ أُخْرانا بأَوْلانا

فقال النبي ﷺ : (إن كاد أميّةُ ليُسلمُ) . وقال أيضاً : (آمنَ شعره وكفر قلبه)[3].

وممّا يقع في هذا الباب من الشعر ما نجده مبعثراً في ديوان لَبيد العامري ، وهو أحد الشعراء المعمّرين في الجاهلية والمخضرمين ممّن أدرك الإسلام . وقيل إنّ لبيداً قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب بعد وفاة

---

(١) حسين : في الأدب الجاهلي ، ص ١٥٣ .
(٢) نفسه ، ص ١٥٤ .
(٣) الأصفهاني : الأغاني ، ٤/١٢٩ - ١٣٠ .

أخيه أَرْبَد ، فأسلم وهاجر وحَسُنَ إسلامه ، ونزل الكوفة في أيّام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فأقام فيها ، ومات هناك في آخر خلافة معاوية[١] .

ويذكر الرواة أنّ لبيداً هجر الشعر بعد إسلامه وإنّه لم يقل سوى بيتٍ واحدٍ في الإسلام ، اخْتُلِف فيه ، ففي حين يرى بعضهم أنّ هذا البيت هو[٢] :

الحمدُ لله إذْ لم يأتني أَجَلي حتّى لَبستُ مِن الإسلام سِرْبالاً

يرى ابن الأثير أنّ البيت الذي قاله في الإسلام هو[٣] :

وكلُّ امرىءٍ يوماً سيعلمُ سعيَهُ إذا كُشِّفتْ عند الإلهِ المحاصِدُ

ومن جهة أخرى فإنّنا لا نرى ما يراه يحيى الجبّوري في أنّ السبب في توقّف لبيد عن قول الشعر كبر سِنّه وعجزه وليس إسلامه وزهده[٤] .

صحيح أنّ الإسلام لم يمنع الشعر ولم يحل بين الشعراء وبين فنّهم ، إلاّ أنّ كبر سِنّ الشاعر ليس بمانع أن يقول الشعر لو كان راغباً فيه ، خاصّة وأنّه عاش ستّين عاماً في الإسلام . ولعلّ وجه الصواب في هذا الانقطاع عن قول الشعر هو الانشغال بآيات الكتاب الكريم التي سيطرت على مشاعره وأحاسيسه وأشغلته عمّا سواها كما يكاد يجمع الرواة . ففي رواية الشعبي أنّه قال : « كتب عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه إلى المُغيرة بن شعبة وهو على الكوفة : أن استنشد مَن قِبَلك من شعراء مصرك ، ماذا قالوا في الإسلام ؟ فأرسل إلى الأغلب العِجْلي الراجز فقال له ، أنشدني ، فقال :

لقد طلبت هيّناً مَوْجُودا أَرجْزاً تُريدُ أَم قَصِيدا

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ١٥/٣٦٢ .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ١٥/٣٦٩ . السهيلي : الروض الأنف ، ٤/٢٢٤ .
(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/٢٦١ .
(٤) الجبّوري : لبيد ، ص ٣٨٢ .

ثم أرسل إلى لبيد فقال : أنشدني ، فقال : إن شئت ما عفى عنه ـ يعني الجاهلية ـ فقال : لا ، أنشدني ما قلت في الإسلام . فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها ، وقال : « أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر » . فكتب بذلك المغيرة إلى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة ، وجعلها في عطاء لبيد ، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة »[1] .

علماً أنّ هناك قصائد عديدة نقع عليها في ديوان لبيد نجد فيها روح الإيمان بالله ، فكأنّه على نور وهدى . ففي رثائه لأخيه أربد ـ مثلاً ـ نلمح الحنيفية ، حين يقول[2] :

إنّ تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن اللهِ رَيْثي وعَجَلْ[3]
أحمدُ الله فلا نِدَّ لهُ ... بيديهِ الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ
مَنْ هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى ... ناعمَ البالِ ومَن شاءَ أضَلْ

وقيل إنّ المعتصم كان يُعجب بشعر لبيد ، ويحبّ أن يستمع لقوله[4] :

بَلينا وما تَبْلَى النجومُ الطوالعُ ... وتبقى الجيالُ بعدنا والمصانعُ[5]

والتي يقول فيها أيضاً :

وما الناسُ إلاّ كالديارِ وأهلِها ... بها يومَ حلُّوها وبعدُ بلاقعُ[6]
ويمضونَ أَرْسالاً[7] ونَخْلُفُ بعدهمْ ... كما ضمَّ إحدى الراحتينِ الأصابعُ

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ٣١/٢١ .
(٢) لبيد : ديوان ، ص ١٧٤ . الأصفهاني : الأغاني ، ٣٧٢/١٥ .
(٣) النفل : الفضل والعطاء . ريثي : رَيَثَ ، أريث : إذا أبطأت .
(٤) لبيد : ديوان ، ص ١٦٨ .
(٥) المصانع : القصور .
(٦) بلاقع : قفار .
(٧) أرسالاً : جماعة بعد جماعة .

وما المرءُ إلاَّ كالشهاب وضَوْئِه يحورُ رماداً بعدَ إذْ هو ساطعُ[1]
وما البِرُّ إلاَّ مُضْمَراتٌ[2] مِن التُّقى وما المالُ إلاَّ عارياتٌ ودائعُ
أليسَ ورائي إنْ تراختْ منيّتي لُزومُ العصا تُحْنَى عليها الأصابعُ ؟

ومن الشعر الديني الذي قيل قبل الإسلام قول صَرْمة بن أنس بن قيس ، حين يتحدّث عن مخافة الناس لله تعالى ، فكان أن تهوّدت اليهود وحبست الرهبان أنفسها في الصوامع . وبفضله عرفت الوحوش منافعها ومناكحها ، واستدلّ كلّ مخلوق بما أعطاه من عقل يرشده أو غريزة يهتدى بها إلى ما يصلح شأنه وأمره ، وذلك في قوله[3] :

وله الراهبُ الحبيسُ تراهُ رَهْنَ يُونُسٍ وكان ناعمَ بالِ
وله هَوَّدتْ يهودٌ وكانت كلّ دينٍ وكلّ أمرٍ عُضالِ[4]
وله شَمَّسَ النصارى وقاموا كلّ عيدٍ لهم وكلّ احتفالِ
وله الوَحْشُ في الجبال تراهُ في حِقافٍ وفي ظلال الرمالِ[5]

ويندرج تحت هذا النوع من الشعر أيضاً شعر بعض ملوك اليمن الذين بشّروا بظهور رسول الله ﷺ من خلال ما تسرّب إليهم من أخبار أهل الكتاب . وكان من هؤلاء (الرائش) الذي يقال إنّه أوّل من غزا من ملوك اليمن ، وأصاب الغنائم ، فسمّي الرائش لأنّه راش الناس وكساهم ، إذ يُروى أنّه ذكر نبيّنا محمّداً ﷺ وملوكاً يكونون قبله ، حين يقول[6] :

ويملكُ بعدهم رجلٌ عظيمٌ نبيٌّ لا يرخّصُ في الحرامِ

---

(١) يحور : يصير .
(٢) مضمرات : ما أضمرت .
(٣) المقدسي : البدء والتاريخ ، ٧٦/١ . .
(٤) عضال : شديد .
(٥) حقاف : جمع حِقْف ، وهو ما اعوجّ من الرمل واستطال .
(٦) المقدسي : البدء والتاريخ ، ١٧٥/٣ .

يُسمَّى أحمداً يا ليتَ أنّي أُعمِّرُ بعد مَبْعَثِه بعامِ

ومثله تُبّع الأوسط (أسعد أبو كرب) وكان يغزو بالنجوم ويسير بها حتى بلغ الهند والروم ، وطالت مدّته واشتدّت وطأته ، وملّته حِمْيَر لكثرة غزاته ، وهو الذي قال فيما يروى :

شَهِدتُ على أحمدَ أنّه رسولٌ من الله باري النَّسَمْ[1]
فلو مدّ عُمْري إلى عُمْرِهِ لكنتُ وزيراً لهُ وابْنَ عَمْ

ويذكر المقدسي بأنّه هو الذي قتل يهود يثرب ، وأراد أن يخربّها ، فأخبر أنّها مهاجَر نبيّ ، فآمن به وتركها كما يزعمون[2] .

ومن الرجز الذي نعتزّ بإنشاده ونُسرّ بالاستماع إليه تلك الأرجاز التي كانت تتغنّى بها الشَّيْماء بنت الحارث بن عبد العُزّى (أخت رسول الله بالرضاعة) حين كانت تحتضنه مع أمّها ، وهو طفل ، وترقّصه وتقول[3] :

هذا أخٌ لِي لَمْ تَلِدْهُ أُمّي
وليسَ مِن نَسْلِ أبي وعمّي
فأَنْمِهِ اللَّهمّ في ما تُنْمِي

وفي الإصابة يروي لنا العسقلاني أنّ الشيماء ، كانت ترقّص محمّداً ﷺ وهو صغير وتغنّي له[4] :

يا ربّنا أَبْقِ لَنا مُحمَّدا
حتّى أراهُ يافِعاً وأمْرَدا

---

(١) باري النسم : خالق الكائنات الحيّة .
(٢) المقدسي : البدء والتاريخ ، ١٧٧/٣ .
(٣) الحلبي : السيرة الحلبية ، ١٢٦/١ .
(٤) العسقلاني : الإصابة ، ١٢٣/٨ .

ثـمّ أراهُ سـيِّـداً مُـسَـوَّدا
واكْـبُـتْ أعـادِيَـهُ مـعـاً والـحُـسَّـدا
وأعـطهِ عِـزّاً يـدومُ أبَـدا

ومما يُنسب إلى آمنة بنت وَهْب (أمّ الرسول ﷺ) قـولها ، وهي على فراش الموت ، مخاطبة ابنها محمّداً[1] :

بـارِكَ فـيـكَ الله مِـن غـلامِ يـا بنَ الذي في حَـوْمَةِ الحِمامِ
نـجـا بعَـوْنِ الـمَلِكِ الـعـلّامِ فُـودِي غَداةَ الضَّـرْبِ بـالسِّهـامِ
بـمـائـةٍ مِـن إبـلٍ سَـوامِ[2] إن صَحَّ ما أبصرتُ في المنامِ
فـأنـتَ مبـعـوثٌ إلـى الأنـامِ تُبعثُ في الحِـلّ وفي الحـرامِ
تُبعثُ بـالـتـوحيـدِ والإسـلامِ دينِ أبـيـكَ الـبَـرِّ إبـراهـامِ
فـالله يَـنْـهـاكَ عـن الأصـنـامِ أن لا تُـوالِـيهـا مـعَ الأقـوامِ

وإذا كنّا لا نستطيع أن نتأكّد من صحّة نسبة هذه المقطّعات إلى قائليها ، فإنّنا ـ في الوقت ذاته ـ لا نملك من المعطيات ما يجعلنا ننكرها .

ولم يقتصر أمر التديّن والإيمان بالله على شعراء اليهود والنصارى والحنفاء ، فقد أطلق بعض الشعراء العرب ، من أصحاب المعلّقات وغيرهم لفظ الله ، دلالة على الإيمان بوجوده وبقدرته المطلقة في تدبير شؤون الكون .

---

(١) الدرّ المنثور ص ١٦ (عن شاعرات العرب ص ٢٠) .
(٢) إشارة ـ فيما زُعم ـ إلى أنّ عبد المطلب بن هشام (جدّ رسول الله ﷺ) قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم ، لئن ولد له عشرة أبناء ، ثمّ بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة . فلّما توافى بنوه عشرة دعاهم إلى الوفاء بذلك ، فخرج القِدْح على عبد الله ، وتدخّلت قريش حينذاك ، وفُدي بمائة من الإبل (ابن هشام : سيرة ، ١/١٥١ ـ ١٥٤) .
الإبل السوام : الراعية .

فامرؤ القيس الكندي يحمد الله حين يقول[1] :

أَرى إبِلِي ، والحمدُ لله أصبحتْ ثِقالاً[2] إذا ما اسْتَقْبَلَتْهَا صُعُودها

وزهير بن أبي سُلمى يرى أنّ الله هو الحقّ ، وهو أهل التقوى بقوله[3] :

بَـدا لـيَ أنّ الله حـقٌّ فـزادَنـي إلى الحقِّ تَقْوى الله ما قـد بَدا لِيَـا

والله عالم الغيب ، ويحيي العظام وهي رميم عنـد حاتم الـطائي ، إذ يقول[4] :

أمَـا والـذي لا يعلمُ الغيبَ غيـرهُ ويُحيِي العـظامَ البِيضَ وهْي رَميـمُ

ولعلّ المتتبّع لهذه الأخبار ولتلك الأشعار يجد أنّ العرب قُبيل الرسالة كانوا مهيّئين ـ وجدانياً ـ لحمل الدعوة الإسلامية ، وأنّ المعارضة الحادّة التي واجـه بهـا زعمـاء قـريش رسـول الله ﷺ لم تكن إلّا دفـاعـاً عن مصـالحهم ونفوذهم ، وخشية أن تفقد قريش زعامتها لمكّة بخاصّة وللعرب بعامّة .

---

(١) امرؤ القيس : ديوان ، ص ٨٩ .

(٢) ثقالاً : أراد سمينة ، تتثاقل في المشي صعوداً .

(٣) زهير : ديوان : ص ٢٨٧ .

(٤) الطائي : ديوان ، ص ٨٧ .

2-عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم (الأموي، العباسي، الأندلس).

أشرق الإسلام على الجزيرة العربية برسالته السماوية الأخيرة وعلى نبيه خاتم رسولنا الكريم محمد ﷺ، وأضاء الإسلام جنبات الجزيرة العربية بشريعته السمحاء، وكان أهلها يعيشون في قبائل متناحرة عبر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1]، فجعلهم أمة واحدة ذات رسالة عالمية إلى الناس كافة يتلقون من مصدر إلهي واحد هو القرآن الكريم وإتباع سنة رسوله الكريم، ويشتركون في عبادة واحدة وتعبر الآية الشريفة عن ذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وهذا المنهج الرباني جاء ليخرج الناس في الظلمات إلى النور في ظل شريعة سماوية غنية بمبادئ ونظريات ترتقى بالإنسان فتهذب سلوكه وتدفعه إلى فعل الخير والدعوة إليه، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3]. وذلك حتى يحرس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخلاق الأمة ويحيى فيها جوانب الحق والخير وتلك هي مهمة الدعاة والأدباء من الذين يصدرون في أدبهم عن رسالة وهدف في الحياة.

وقد واكب الإسلام رحلة الأدب خلال عصوره المختلفة نزول الوحي إلى يومنا هذا وكان لكل عصر من عصور الأدب خصائصه المميزة له، وكانت الحضارة الإسلامية ايضا من أهم عوامل ثرائه وخصوبته.

كان عصر النبوة والخلفاء الراشدين بداية تحول جذري لحياة العربي خاصة وانقلاب شامل لكثير من المفاهيم والأفكار والعادات والتقاليد والعقائد.

وفي الجزيرة العربية، تلك البيئة التي سطعت عليها شمس الإسلام الرحيبة قامت موجة عاتية من موجات الصراع بين الحق والباطل بين الخير والشر بين الإيمان والكفر بين التوحيد والشرك. وكانت أكثر المواجهات شراسة هي الدعوة إلى التوحيد ونبذ العقائد الفاسدة من عبادة الأصنام والأوثان والكواكب والدعوة إلى الله الواحد القهار التي ظل الرسول ﷺ يدعوها قرابة ثلاثة عشرة سنة هو ومن معه من الصحابة يتعرضون لأذى قريس وكفارها صابرين محتسبين حتى هاجروا إلى يثرب ليضع ﷺ

---

[1]-سورة آل عمران، آية 103.

[2]-سورة الأنعام، الآية 153.

[3]-سورة آل عمران، آية 110.

أول لبنات لدولة فتية أساسها التقوى والإيان بالله شاخصة أبصارها إلى قوى الشرك والجبروت حتى زلزلت أركانهما وحطمت أوثانهما.

وكان الشعر العربي في الجاهلية فن العربية الأول ومجتبى عقولها بمثابة الموروث القومي للعروبة وله المكانة الرفيعة عندهم مما جعلهم يعضون عليه بالنواجذ ويشيدون بما فيه من مآثر وأيام.

جاء الإسلام إلى هذه البيئة الشاعرة ليوجههم إلى خير هذا الشعر ويدعوهم إلى نبذ شره متمثلا فيما جاء من هجاء فاحش يتناول الأعراض والأنساب والمثالب مما يشعل نيران العصبية في نفسوهم، جاء أيضا ليقول لا للعزل الفاحش ولا للتفاخر والتنافر وسجع الكهان، وكل ما خالف دعوته إلى الفضيلة والخلق الرفيع.

لم يرفض الإسلام الشعر رفضا قاطعا وارتضى منه ما كان موافقا لمنهجه، وكان الرسول ﷺ يعجب بالشعر ويقول: إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما، وكان يحذر منه أيضا فيقول: «لأنّ يمتلئ جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يمتلئ شعرا[1]، وذلك لما له من خطورة وأثر كبير على متلقيه إن كان فيما يخالف الإسلام ويكون سببا من أسباب الفساد أو انتشار الخصومات ولما لبعض موضوعاته من أثر في أثارة الغرائز كالغزل الفاحش أو في إزكاء روح العصبية أو العبث والاستهتار كما في الخمريات وشعر المجون أو يكون دعوة للإلحاد كما في شعر الزندقة والإلحاد، مثل هذه الأغراض رفضها الإسلام ولا يمكن أن تنسب إلى الأدب الإسلامي.

ومما يؤكد عدم رفض الرسول عليه السلام الشعر كله أنه كان يستنشد الشعر وخاصة العفيف منه فقد أنشد لعنترة شعرا قال فيه:

ولقد أبيت على الطوى وأظله = حتى أنال به كريم المأكل

فقال عليه السلام: ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه ألا عنترة[2] وكان عليه السلام يصف شعر حسان بن ثابت بأنه أشد على الكفار من وقع النبل.

ومن شعراء الدعوة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ "حسان بن ثابت" و"كعب بن مالك" و"عبد الله بن رواحة" من الذين اتخذوا من الشعر سلاحا ماضيا ضد خصوم الإسلام.

وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء الفاحش ويعاقبون

---

[1]-العمدة، لابن رشيق، ط1، 12/1،

[2]-الأغاني، دار الكتب، 1963. 234/8.

فيه كما عاقب عمر بن الخطاب ﷺ "الحطيئة" بحبسه لهجائه الزبرقان بن بدر.

وتميزت الحياة الأدبية بتأثرها بالإسلام ومفاهيمه ومعانيه وانعكس في الشعر صورة الصراع الدائر بين المسلمين والكفار من غزوات ومعارك ومن صراع فكرى بين التوحيد والشكر وعبر الشعر عن هذه المرحلة من حياة الدعوة الإسلامية، وعن ذلك الانقلاب الفكري الذي أحدثه الإسلام في عقول الشعراء من عبادة الأصنام كما يقول خزاعى بن نهم، وكان سادنا للصنم "نهم" في الجاهلية فكسره وأسلم ثم قال[1]:

ذهبـــت إلى "نهـــم" لأذبـــح عنـــده عتيرة نســك كالــذي كنــت أفعــل

فقلت لنفســي حــين راجعــت عقلــها أهـــذا إلـــه؟ أبكـــم لـــيس يعقـــل

ابيـــتُ فـــديني اليـــوم ديـــن محمـــد إلـــه الســـماء الماجـــد المتفضـــل

وهذا أيضا عمرو بن الجموح السلمي الخزرجي الأنصاري يثور على إلهه فيقول[2]:

والله لـــو كنـــت إلهـــا لم تكـــن أنت وكلـــب وســـط بئـــر في قـــرن

أف لملقـــــاك إلهـــــا مســـــتدن الآن فتشـــناك عـــن ســـوء الغـــبن

الحمـــــــــد لله ذي المـــــــــنن الواهـــب الـــرازق ديـــان الـــدين

هـــو الـــذي انقـــذني مـــن قبـــل أن أكـــون في ظلمـــة قـــبر مـــرتهن

ولم يقف الشعراء عند تصوير قصة إيمانهم بالله سبحانه وتعالى ونبذ عبادة الأصنام والأوثان فحسب ولكنهم عبروا بصدق عن مبادئ الإسلام وقيمة النبيلة وظهر تأثرهم بالقرآن الكريم في كثير من أشعارهم، وكان الشعر في عهد الرسول ﷺ وسيلة من وسائل نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها وتصوير الغزوات التي حدثت في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، وتردد شعر الجهاد في سبيل الله لأول مرة في تاريخ الدعوة وارتفع صوت الشعراء مصورين غزوة بدر وأُحد والخندق ومؤته، يصورون تأييد الله للمجاهدين بالثبات والنصر سلاحهم التقوى والطاعة والصبر والبسالة، وقد شهد يوم مؤته ملحمة من ملامح الشجاعة والإيمان والصبر على الابتلاء، وكان بين المسلمين والروم بتخوم

---

[1]-الأصنام لابن الكبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، الأميرية، 1914.

[2]-عمرو بن الجموح الخزرجي صحابي جليل شهد بدرا واستشهد في أُحد ويقال أنه خير الأنصار إسلاما، كان له صنم يجله وكان صبيان المدينة يغيرون عليه كل ليلة فيلقونه في بئر مهجورة فيرجع ويخرجه حتى عرف الحقيقة. انظر: الإصابة، مطبعة مصطفى محمد ، المكتبة التجارية الكبرى، 1939، 522/2.

"البلقاء"، وكان بين جنود المسلمين زيد بن حارثة الذي قاتل تحت لواء رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم فأخذ جعفر الراية فقاتل بها حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل، وكان جعفر حين اقتحم عن فرسه يردد:

يـــا حبـــذا الجنـــة واقترابهـــا طيبـــــة وبـــــادرا شـــــرابها

والـــروم روم قـــددنا عـــذابها كـــــافرة بعيـــــدة أنســـــابها

على إذا لاقيتها ضرابها

ولم قتل جعفر أخذ الراية عبد الله بن الرواحة ثم تقدم بها وهو على فرسه فأخذ يستنزل نفسه فيقول:

أقســـــمت يـــــا نفـــــس لتنزلنـــــه لتنزلنـــــــــــــه أو لتكرهنـــــــــــــه

إن أجلـــب النـــاس وشـــدو الرنـــة مـــــالي أراك تكـــــرهين الجنـــــة

لقـــد طـــال مـــا كنـــت مطمئنـــة هـــــل أنـــــت إلا نطفـــــة في شـــــنة

وكان يستحث نفسه طالبا الشهادة فيقول:

يـــــا نفـــــس ألا تقتلـــــي تمـــــوتي هـــذا حمـــام المـــوت قـــد صـــليت

ومـــــا تمنيـــــت فقـــــد أعطيـــــت إن تفعلـــــي فعلـــــها اهتـــــديت

وصحبت معارك الجهاد والفتح أناشيد وأشعار كثيرة تبث الحماس في النفوس وتعبر عن الاستعداد للتضحية وتصف بلاء المجاهدين وشجاعتهم وإقدامهم، وكانت واقعة أجنادين بفلسطين بين الروم والمسلمين في عهد أبي بكر الصديق ويقود المسلمين خالد بن سعيد بن العاص وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ثم أبي عبيدة بن الجراح، وفر هرقل يومئذ إلى أنطاكية واستشهد في هذه المعركة أبان بن سعيد وعكرمة بن أبي جهل[1].

وفي معارك المسلمين مع الفرس قاتل المسلمون قتالا شديدا وسجلت أشعارهم ملاحم وشجاعتهم، فوصف قيس بن المكشوح معركة القادسية فقال[2]:

وجئنـــا القادســـية بعـــد شـــهر مســـــومة دوابرهـــــا دوامـــــي

---

[1]-الكامل، لابن الأثير، 275/2، 267. وأيضا فتوح البلدان للبلاذري، ص163.

[2]-المرجع السابق، ص174.

فناهضـــنا هنالـــك جمـــع كســـرى وأبنـــــاء المرازبـــــة الكـــــرام

فلمـــــا رأيـــــت الخيـــــل جالـــــت قصـــــدت لموقـــف الملـــك الهمـــام

فأضـــرب رأســـه فهـــوى صـــريعا بســـــيف لا أفـــــل ولا كهـــــام

بازلين النفس والنفيس في سبيل إعلاء دين الله وكان الشعر مواكبا لحركة الفتوحات وسجلا تاريخيا لها ولحال المسلمين مع أعدائهم.

.العصر الأموي:

انطلق العرب خارج جزيرتهم ينشرون الإسلام وقيمة وفضائله بين شعوب الأرض وأقطارها، حيث فتحوا العراق وخراسان وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب وعبروا مضيق جبل طارق إلى أوربا فركزوا أعلامهم على الأندلس جنوب فرنسا كما ركزوها في أقصى الشرق في الهند ومشارف الصين.

استظل الشعراء في عصر بني أمية بظلال الإسلام الوارفة فنهل منه العديد من الشعراء متأثرين بالحياة الدينية التي شملت حياة هذه الشعوب الذي دخلت في رحم الإسلام، وتنسمت قيمه وفضائله، وقد ساهم الوعاظ والنساك الذين شاعوا في هذا العصر في تعميق الإيمان في النفوس فقد كانوا «يذيعون في مختلف الأجواء عبير وعظمهم ونسكهم سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمة الجيوش الغازية وكانوا ما يزالون يحدثون الناس عن البعث والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار وأعين الناس دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا، وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم شعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها[1].

وتأثرت فنون الشعر المعرفة من مدح وغزل وهجاء بالإسلام فتأثر فن المديح بتصوير الممدوحين بالفضائل الدينية والخلقية كالعدل والرحمة والتقوى وحب الجهاد وتحولت معاني الهجاء إلى الهجاء بالظلم وانتهاك حرمات الدين وتعطيل أحكامه والانحراف عن الدين والهجاء بالفسوق والعصيان، أما فن الغزل فقد تأثر بمثالية الإسلام في الطهر والنقاء والابتعاد عن الفحش فتميز بالبراءة والصفاء والنقاء وخاصة عند شعراء نجد وبوادى الحجاز وفقهاء المدينة ومكة مما هيأ لظهور الغزل المعذري وقد أضفى الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضربا من القدسية وأحاطها بهالة من الجلال والوقار[2].

---

[1]-العصر الإسلامي، شوقي ضيف، ص177.

[2]-المرجع السابق، 176-179.

أما شعر الحماسة والجهاد فقد ازداد واشتعل لهيبه مع كثرة الفتوحات وإقبال المسلمين على الجهاد للفوز بإحدى الحسنتين النصر أو الشهادة، وقد كثر في صفوف المحاربين الوعاظ يحثون على الاستشهاد في سبيل الله.

كما تحدث الشعراء الأمويون عن الموت والبعث وعذاب القبر والحساب وذرفوا الدموع الغزار على ما ارتكبوا من آثام وأظهروا مشاعر الندم والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى فيصور عمران عن حطان رهبة الموت قائلا[1]:

لا يعجز المـــوت شـــيء دون خالقـــه فـــالموت فـــإن إذا مـــا نالـــه الأجـــل
وكل كـــرب أمـــام المـــوت متضـــع للموت والمـــوت فيمـــا بعـــده جلـــل

كما صوروا في أشعارهم حسن الخلق من طهر ونقاء وغض للبصر وإحصان للفرج ومراعاة لحرمة الجار وعفة اللسان وذوي القربى وصلة الأرحام وتجنب الخمر وطاعة الله سبحانه وتعالى في جميع أمور الحياة ومن ذلك قول مسكين الدرامي[2]:

نـــــارى ونـــــار الجـــــار واحـــــدة وإليـــــه قبلـــــي تـــــزل القـــــدر
مـــــا شـــــر جـــــاري إذا أجـــــاوره ألا يكـــــــون لبيتـــــــه ســـــــتر
أعمـــــى إذا جـــــارتي خرجـــــت حـــــتى يـــــوارى جـــــارتي الخـــــدرُ
ويصـــــم عمـــــا كـــــان بينـــــهما سمعـــــى ومـــــا بي غـــــيره وقـــــرُ

وكان للخوارج في عصر بني أمية شعراء عبروا عن فكرتهم وحماسهم الشديد للجهاد في سبيلها وكان شعرهم يعبر بصدق عن إيمانهم وإخلاصهم الشديد لدينهم الحنيف، داعين إلى الشهادة والاستبسال في سبيل مبادئهم التي اعتقدوا أنها حق وأن الخلفاء الأمويين قد اغتصبوا حق المسلمين جميعا في اختيار خليفتهم وهذا الشاعر الخارجي يرجو الشهادة ويرتقبها في قوله:

لقد فـــاز إخـــواني فنـــالوا الـــتي بهـــا نجـــوا مـــن عـــذاب دائـــم لا يغـــير
ابى الله إلا أن أعـــــيش خلافهـــــم وفي الله لي عـــــز وحـــــرز ومنصـــــر
ويـــــا رب هـــــب لي ضـــــربة بمهـــــد حســـــام إذا لاقـــــى الضـــــربة يهـــــبر

---

[1]-الأغاني، 60/18.

[2]-أمالي المرتضى، 472/1، العشر والشعراء 544/1.

فقد طـــال عـــيش في الظـــلال وأهلـــه أخاف الـــتي يخشـــى التقـــى وأحـــذر

أخـــاف صـــروف الـــدهر إني رأيتـــها تـــروح علـــى هـــذا الأتـــام وتبكـــر

كما أن الروح الدينية عند العلويين أشياع على بن أبي طالب كرم الله وجه ظهرت عند شعرائهم بمدح آل البيت والتعبير عن حبهم له وذكر فضائلهم وأخلاقهم وهذا النوع أيضا بعد من أبواب الشعر الإسلامي، كما ظهر شعر الزهد وما ينطوى عليه من الدعوة إلى العمل الصالح والتزوع نحو تقوى الله والخوف من عذابه.

في العصر العباس:

تابع الأدب الإسلامي رحلته في زمن خلافة العباسيين بعد أن توطدت أركان الدولة الإسلامية من مشارق الأرض إلى مغاربها وضم في تخومه شعوبا متباينة في الجنس واللغة والثقافة والعادات والتقاليد عن عرب وفرس وروم وصقالبة وهنود وأتراك وزنج، ودخل من هذه الأجناس في رحم الإسلام الكثير وامتزجوا جنسيا عن طريق المصاهرة، وروحيا بولائهم للإسلام وثقافيا باتخاذهم اللغة العربية لغة القرآن الكريم لغة قومية لهم فأقبلوا على تعلمها من دخل في الإسلام أو من بقى على دينه القديم وكان ذلك من أهم مقومات وحدة إسلامية كبرى صنعت أعظم حضارة أخلاقية وعلمية وأدبية صنعها التاريخ الإنساني.

وكان المجتمع الإسلام مجتمعا مفتوحا على مصراعية لجميع الأديان والعقائد فضم المسلمين مع النصارى مع اليهود مع المجوس وأصحاب الملل الأخرى الصالح منها والطالح، وقد لعب هؤلاء دورا في صنع الحضارة الإسلامية مع المسلمين من خلال نشاط الترجمة ونشر كنوز المعارف الإنسانية السابقة، وكان أيضا من هؤلاء معول هدم وخاصة المجوس والمازدكة والمانوية ومنهم أصحاب العقائد الفاسدة كالشعوبية والزنادقة ممن كانوا دعاة للإلحاد واللهو والمجون الذين ظهرت دعوتهم في موضوعات شعرية تخالف ما ينادى به الإسلام من مبادئ، فالشعوبيون من العناصر الغريبة التي أضمرت روح العداوة للمسلمين وكانوا سببا من أسباب اشتعال الفتن والثورات في المجتنع العباس فقد (شارك الموالى الخوارج والشبعة في الثورة على الأمويين في العصر الأموي، وكان البارمكة أمثال آل سهل وآل طاهر بن الحسين يذكون نار الشعوبية فيمن حولهم من الفرس) [1].

وكان إسماعيل بن يسار النسائي يفاخر بحضارة أمته الفارسية على حياة البدو الغليظة التي

[1]-العصر العباسي، شوقي ضيف، ص71.

عاشتها العرب.. كما كان أبو عبيدة اللغوى المشهور وأصله من يهود فارس قد صب عنايته على تسجيل مثالب العرب، وليس من شك في أن عنايته بذلك هي التي دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمله من قود جزل لإشعال نار الفتنة بينما كان يعنى بالكتابة عن فضائل الفرس[1].

وكان من هؤلاء الشعوبيين المجان والخلعاء من الذين أعجبتهم الحضارة الأجنبية من العرب وما اقترف بها من مجون واستمتاع بالحياة العابثة، وكان أشد خطرا من هؤلاء الزنادقة الذين كرهوا الإسلام وقاموا بدور كبير في التشكيك في العقيدة الإسلامية وإشاعة عقائدهم الفاسدة.

وقف الخلفاء في مواجهة هؤلاء الزنادقة الملحدين فكانوا يقتلونهم بعد محاورتهم وثبوت زندقتهم ثبوتا قطعيا فكان المأمون إذا سمع بزنديق أمر بحمله إليه ودفعه إلى المناظرة لعلّه يقتنع فإن ظل على غوايته أمر بقلته[2].

ومن الذين قتلهم الخلفاء: ابن المقفع وفيه يقول المهدى: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع[3].

وقتل أيضا بشار الذي أعلن أشادته بالنار معبودة قومه المجوس وفضلها على الطين كما فضل إبليس على الإنسان[4].

ومن هؤلاء أيضا صالح بن عبد القدوس وكان يحاضر في المانوية ويكك الناس في عقائدهم، وعبد الكريم بن أبي العوجاء الذي قال عند مقتله لئن قتلموني، لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة[5].

وذلك يؤكد جانبا من دس هؤلاء الزنادقة على الإسلام ويؤكد أيضا أن الخلفاء لم يتهاونوا مع الملحدين الزنادقة ولم يقتلوهم إلا بعد ثبوت تهمة الزندقة عليهم، وما عدا ذلك فكانوا يتركونهم من الذين أسرفوا في الإباحية والمجون فكانوا يعاقبونهم على معاصيهم لعلهم يتوبون عنها.

لم يكن هؤلاء الشعوبيون والزنادقة إلا ظاهرة محدودة في المجتمع الإسلامي كذلك الأمر في أصحاب اللهو والمجون من الذين تحللوا من القيم الإسلامية، وارتادوا الحانات ودور النخاسة حيث

---

[1]-المرجع السابق، ص74-79.

[2]-الحيوان للجاحظ، 442/4.

[3]-آمالى المرتضى، 134/1 طبعة الحلبي.

[4]-الأغاني، 244/30 طبعة دار الكتب.

[5]-آمالي المرتضى، 128/1.

الجوارى والقيان وهم من مترفى الشباب الذين تأثروا بموجة العبث، عدا ذلك فإن عامة المجتمع كان يهتدي بهدى الإسلام وسننه، فقد كانت مساجد بغداد وغيرها عامرة بالعباد والنساك والوعاظ وعلماء الحديث والفقة وكان عامة الشعب يتحلقون حولهم للاتعاظ والتذكرة ومنهم لتعلم أمور الدين، (وكان الوعظ في هذا العصر يلتحم بالقصص للعبرة والعظة وهو التحام قديم منذ تميم الدارى وكعب الأحبار في عصر الخلفاء والراشدين ومنذ قصاصى الفتوح من أمثال أبي سفيان بن حرب وفي عصر بني أمية عند الحسن البصرى وأضرابه الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدينوى[1]، وتأثر الأدب بهذه الموجة من النسك والعبادة الشعراء المسرفون منهم في اللهو والمعاصي والنساك على السواء، فنرى على سبيل المثال كثيرا من شعراء اللهو والمجون يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى كأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد من الذين أسرفوا في حياة اللهو ثم عادوا إلى ربهم تائبين، ومن ذلك قول أبي نواس يراود نفسه على التوبة والاستغفار[2].

حتى متى يا نفس يا تغت ... رين بالامل الكذوب؟

يا نفسي توبي قبل ان ... لا تستطيعي أن تتوبي

واستغفري لذنوبك ... الرحمان غفار الذنوب

إن الحوادث كالرياح ... عليك دائمة الهبوب

والموت شرع واحد ... والخلق مختلفون الضروب

والسعى في طلب التقى ... من خير مكسبة الكسوب

ونرى عند الكثير من شعراء هذا العصر الميل إلى التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى والاستداد للقائه عز وجل، ازداد أيضا شعر الفتوحات الإسلامية ومدحوا الخلفاء بالشجاعة ونشر راية الاسم وتثبيت دعائم الدولة واشادوا بانتصارات المسلمين وبسالتهم في المعارك وكان أبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو فراس الحمداني وغيرهم من شعراء الحماسة الإسلامية في هذا العصر، والذي كان شعرهم سجلا تاريخا لانتصارات المسلمين وأمجادهم.

كما اشتهر من شعراء الزهد في هذا العصر أيضا أبو العتاهية ومحمود الوراق ومحمد بن كناسة ورابعة العدوية.

---

[1]-العصر العباسي، شوقي ضيف، 83-84.

[2]-ديوان أبي نواس، ص616.

في الأندلس:

وفتح المسلمون الأندلس وعاشوا بها ثمانية قرون نسجوا فيها حضارة متميزة شملت أوجه الحياة من تمدن عمران وفكرى وثقافى واجتماعي ومرت حياة المسلمين في بلاد الأندس بمراحل من الثقافة والبناء والترف والنعيم المفرط إلى مراحل انحسار وهزيمة، وتلك عقبى الإفراط والترف والانعماس في الشهوات ثم الانقسام والتناحر فيما بين الأمراء في عهد ملوك الطوائف، وكما يقول الدكتور مصطفى الشكعة «إن التماسك والوحدة والالتحام قوة ومنعة وعزة وسنة الله في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلا، ما اجتمع قوم وتعاطفوا واتحدوا إلا عزوا وامتنعوا على أقوى الأعداء، وما تفرق قوم وتخالفوا إلا ذلوا وهانوا على أحقر الأعداء[1].

ورافق الأدب مراحل القوة والضعف وكما وجدت موضوعات الغزل الفاحش ووصف مجالس اللهو والشراب، وجد أيضا الأدب الإسلامي بقوة فكان

وكانـــــت دار إيمـــــان وعلـــــم معالمهـــا الـــتي طمســـتُ تـــنيرُ

فعـــــادتْ دارّ كفـــــر مصـــــطفاة قـــد اضـــطربت بأهلـــها الأمـــور

مســـــاجدها كنـــــائسُ، أي قلـــــب علـــــى هـــــذا يقـــــرُّ ولا يطـــــيرُ

وبهذا المثال وغيره كان الأدب الإسلامي معبرا عن محنة المسلمين في الأندلس أصدق تعبير.

في العصر الحديث:

تألق الأدب في العصر الحديث وكانت له سمته التي ميزته فقد واكب محنة الغزو والاستعمار الغربي وما آلت إليه الأمة الإسلامية من تشرذم وضعف واحتلال؛ فقد كان أفول شمس الخلافة عن اسطنبول عام ألف وتسعمائة واربع وعشرين هو قاصمة الظهر ونهاية المطاف لأمة ظلت نابضة حية أربعة عشر قرنا من الزمان هاجمتها الأدواء وأحاطتها المصائب ومرت بمراحل من الضعف والقوة بين معالم الجهل والفقر والفساد والبعد عن دين الله، وبين عوامل الوحدة والقوة والنصر على الأعداء بدافع الجهاد في سبيل الله وكانت وحدتها في رباطها الروحي المتمثل في شكل الخلافة الإسلامية التي جمعتهم

[1]-الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة، ص506.

باسم الدين وكانت قادرة على جمع شعوبها عند ازدياد خطر: أعدائها أو محاولتهم اجتياح بلادها وفي العصر الحديث تربصت بها الدول الاستعمارية الدوائر (فلم تكن تمر حقبة من الزمن من غير أن تشب بين الدولة العثمانية عاصمة الخلافة في تركيا وبين روسيا أو اليونان حربا تنقص من أطرافها مما أضعف من قواها العسكرية) [1]، فضلا على مؤامرات الصهيونية العالمية التي كانت تركز على الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى فلسطين و لم تصل إليها إلا بعد ضعف الخلافة الإسلامية وبمقتضى الانتداب البريطاني لفلسطين ثم وعد بلفور.

وفي مواجهة هذه الأطماع الاستعمارية صدرت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وكانت صيحة السلطان عبد الحميد المشهور (يا مسلمي العالم اتحدوا).

[1]-العروبة والإسلام، أنور الجندي، 37.